كتاب لونجين في السمو: محاولة كلاسيكية مبكرة في النقد الفني والرومانتيكي والمقارن

Longinus' Book on the Sublime: An Early Classical Endeavour in Artistic, Romantic and Comparative Criticisms

Dr. Fuad Abdul Muttaleb

Department of English- Faculty of Arts

Jerash University- Jordan

Abstract

Systematic study of literature and criticism in classical Europe starts usually with Plato (428- ca. 347 B.C.), Aristotle (384- 322 B.C.), Horace (65- 8 B.C.), and Longinus (First or Third Century A.D.). These critical thinkers made a considerable contribution to imaginative and critical literature through their works: The Republic, Poetics, Art Poetica, and On the Sublime, which are still influential in modern critical thinking because of the methodological outlooks they put forward. Longinus does not occupy the last place among these thinkers because of his views but due to chronological reasons, for his importance is recognized, and it is rare to find a course in literary criticism, poetry and rhetoric that does not make a mention of his contribution in the field.

This research work studies the scope of literary greatness as shown in Longinus' book On the Sublime, with reference to early thinkers, especially Horace and his emphasis on the proper relation between form and content. It also shows the author's rules of the sublime and compares them with those of Horace. The work concentrates on the sources of the sublime as they appear in the book through various classical quotations. It reaches to two results, the first relates to an evaluation of the book in the light of the works of the three great classical critics. The second result consists in the importance of the book in relation to modern artistic, romantic and comparative criticisms; this is in addition to the

characteristic of pure zeal to respond to a variety of literary texts, that still prominent in almost every aspect of critical and literary theory.

Keywords: *book On the Sublime, artistic criticism, romantic criticism, and comparative criticism.*

كثيرًا ما يلفت كتابُ لونجين "في السموّ" انتباه الدارس العربي للنقد الأدبي، وحين يَشرع بالبحث والنظر في أفكار المؤلف فإنه يواجه مشكلة فقر المصادر والمراجع عنه في المكتبة العربية، التي ليس فيها في أحسن الأحوال غير بضع ترجماتٍ نقديةٍ من الإنجليزية غالبًا في صفحات قليلة، والترجمات المتوافرة أصلًا في الإنجليزية منقولة عن اليونانية، لذلك كان لابد من الانتباه إلى المشكلات الفنية البسيطة التي تنشأ عن ترجمة هذا المصطلح أو ذاك. وبسبب طبيعة موضوع البحث وندرة المعطيات عن لونجين بالعربية،[1] فقد لجأنا في الغالب إلى الكتابات الإنجليزية وما توافر من شذرات نقدية مترجمة من أجل إعداد هذا البحث.

إن ترجمة عنوان الكتاب باليونانية تثير بعض المشكلاتٍ، فالمصطلح اليوناني hypos يُترجم إلى الإنجليزية حينًا On the Sublime أي "في الجلال" أو "في السموّ" وحينًا "عن الكتابة الجميلة" أو "عن الأسلوب الجميل".[2] ويعلق أحد المترجمين على الترجمات الإنجليزية للكتاب، الذي تصدر له تقريبًا ترجمة كل عقد من الزمن، وكلما ظهرت ترجمة يقدم المترجم مسوغات لعمله لكونه يضمّن فيه شيئًا جديدًا، وحين ينظر في طرائق النقل والتشابهات والاختلافات يجد أن: جميع المترجمين يقعون في معضلات تتعلق بسهولة التعبير وبفهم النص بدرجات متفاوتة، فالترجمة في روحها ما هي إلا فهم وتفسير للأصل، ويضيف المترجم إلى النص ما يضيف حسب تمكنه من الموضوع تضلعه فيه، وكذلك حسب قدراته اللغوية وفلسفته في النقل. وقد اكتشفت بأن هؤلاء المترجمين يلجأون إلى التفسير حينًا وإلى الإيجاز حينًا آخر، لا بل إلى الإحالة المتكررة إلى الهوامش. كما أنهم جميعًا يختلفون في ترجمة المجاز، فمنهم من يفسّره للقارئ ومنهم من يقترح مجازًا بديلًا،

---

[1] تتوافر بالعربية حسب اطلاعي ترجمة واحدة عن الإنجليزية لكتاب "في السمو" ظهرت تحت عنوان "في الجلال"، ترجمها وقدم لها وعلق عليها د. عدنان خالد عبد الله وصدرت في العين في الإمارات العربية المتحدة ضمن منشورات هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث عام 2009م. وقد ظهرت بعض فصول الكتاب (من السابع عشر إلى الثامن والثلاثين) مترجمة إلى العربية أصلًا ضمن مجموعة أعمال نقدية لمارك شرودر وآخرين في ثلاثة أجزاء، ترجمتها هيفاء هاشم وراجعتها د. نجاح العطار تحت عنوان، "النقد: أسس النقد الأدبي الحديث". صدرت الترجمة مرتين عن وزارة الثقافة بدمشق، الأولى عام 1966م، والثانية عام 2005م. ولابد من ذكر أن ترجمة هيفاء هاشم تبلغ سبعًا وثلاثين صفحة فحسب من كتاب لونجين (من ص 39 إلى ص 76). ويذكر د. عدنان خالد عبد الله ترجمة لمقاطع من الكتاب قام بها محمد حمدي إبراهيم تحت عنوان "لونجينوس: عن الأسلوب السامي الرفيع" في، أوراق كلاسيكية، العدد الرابع، 1995م، ص 317؛ انظر كتابه، لونجين والجرجاني: دراسة تاريخية نقدية مقارنة (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000م)، ص: 120.

[2] انظر: د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 64.

وهناك من يترجم المجاز ترجمة حرفية كما يرد في الأصل. والاختلافات الكبيرة بين هؤلاء المترجمين لا نعزوها إلى سوء الفهم أو الخطأ في الترجمة بل إلى الاجتهاد في النقل وتنوع القدرات الفردية التي يتمتع بها كل هؤلاء الأعلام.[1]

أما في العربية فقد ترجم العنوان إلى "عن الأسلوب السامي الرفيع"[2] أو "في الجلال"[3] أو "في الأسلوب الرفيع"[4] أو "في السموّ"[5]. ويقترب المصطلح اليوناني في معناه من "السمو أو العلو أو الرفعة أو الجلال". وعليه، استخدمنا هنا "السموَّ" للدلالة على المفهوم الذي يدرسه الكتاب. وبالنسبة إلى المؤلف، فإنه يظهر بالعربية أحيانًا "لونجينوس" أو "لونجاينوس" أو "لونجين". وجريًا على عادة القدماء في تعريب الأسماء حسب الأقيسة الصوتية العربية، استُخدم هنا "لونجين" على غرار اسم أفلوطين Plotinus بدلًا من أفلوطينوس وأرسطو Aristotle وليس أرسطو طاليس. وسبب ورود اسم لونجينوس هو أن الأسماء في سورية القرن الثالث الميلادي كانت تكتب حسب قواعد اللغة اللاتينية فيضاف إليها اللاحقة ius – بوصفها علامة للرفع وقد ظهر هذا الاسم ضمن الأسماء التدمرية حسب النصوص اللاتينية المدونة عن وثائق مملكة تدمر.

يُنسب لونجين مؤلف كتاب "في السموّ" إلى القرن الأول أو الثالث الميلادي، ولا نكاد نعرف شيئًا مؤكدًا عن تاريخ ولادته الذي كان معروفًا في القرن العاشر،[6] وهو زمن اكتشاف المخطوطة. وفي عصر النهضة وصولًا إلى نهايات القرن السابع عشر، كانت قلة من الناس قد قرأت كتاب لونجين "في السموّ" وعَدّته عملًا مهمًا. وخلال القرن الثامن عشر إلى بدايات القرن التاسع عشر، قرأ الكتاب بعض النقاد وناقشوه واقتبسوا منه، وراحت أفكاره النقدية تتضح تدريجيًا.[7] ومن ثمَّ عُرف المؤلف بكونه الفيلسوف والناقد الشهير الذي عمل في السنين الأخيرة من حياته مستشارًا لزنوبيا ووزيرًا في تدمر، ومن ثم فقد حياته فداءً لتلك المملكة الناشئة التي دمرها الإمبراطور أورليان بسبب

---

[1] كاسيوس لونجين، في الجلال، ترجمة وتقديم وتعليق د. عدنان خالد عبد الله (العين: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث – المجمع الثقافي، 2009)، ص: 9-11.

[2] المرجع السابق، ص: 120.

[3] المرجع السابق، ص: 9.

[4] ديفد ديتشس، منهاج النقد الأدبي: بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم ومراجعة د. إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1967)، ص: 82.

[5] ريتشارد داتون، مقدمة لدراسة النقد الأدبي الإنجليزي، ترجمه وقدم له د. فؤاد عبد المطلب (عمان: دار زهران للنشر والتوزيع، 2015)، ص: 40.

[6] انظر، د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني: دراسة تاريخية نقدية مقارنة، ص: 9. انظر أيضاً، ديفيد ديتشس، منهاج النقد الأدبي: بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم ومراجعة د. إحسان عباس، المعطيات السابقة، ص: 84.

[7] تشارلز بريسلر، النقد الأدبي: مقدمة في النظرية والتطبيق (نيوجرسي: بيرسون برينتس هول، 2007م)، ص: 26.

تمرد ملكة تدمر على الإمبراطورية الرومانية، فقد أعدمه أورليان بسبب ما قيل عن تحريضه زنوبيا على الثورة ضد روما.[1]

وبعد القرن التاسع عشر أُثيرت عاصفة من الشكوك حول مؤلف الكتاب الحقيقي حين عثر باحث إيطالي على مخطوطة أخرى لكتاب "في السمو" في مكتبة الفاتيكان ظهر فيها اسم المؤلف أنه إما "دايونيسس أو لونجين".[2] وقد انشغل المترجمون والباحثون في الأعمال الكلاسيكية بالاستقصاء حول هوية المؤلف الأصلية، حيث انقسم هؤلاء جماعتين: الأولى تدعي أن المؤلف شخص مجهول غير معروف عاش في القرن الأول الميلادي، أما الثانية فتقول إن المؤلف هو الشخص الذي نُسبت إليه المخطوطة سابقًا الذي عاش في القرن الثالث الميلادي وعُرف عنه غزارة العلم والاطلاع، وقد قُتل في تدمر أو في حمص على يد الإمبراطور أورليان. ولا يزال النقاش جاريًا حول هوية المؤلف حتى يتم العثور على مخطوطة أو دليل تاريخي يُثبت المؤلف الحقيقي.

ومن المرجح أنَّ المؤلف الحقيقيَّ لمخطوطة "في السمو" هو لونجين نفسه، والأسباب مختلفة وكثيرة.[3] وسواء أكان لونجين في النهاية هو المؤلف أم غيره، فإن ذلك لا يمسُّ محتوى الكتاب وأهميته الذي ينتمي في جانب منه إلى النقد الجديد أو المقارن أو ذلك الذي يمكن أن يُصنف ضمن ما يعرف اصطلاحًا بدراسات النظائر ضمن حقل الدراسات الأدبية المقارنة التي تشير إلى العلاقات المباشرة أو غير المباشرة بين الأعمال الأدبية بسبب وجود مواد قابلة للمقارنة في أعمال متوافرة.[4] ويؤدي ذلك إلى إنتاج رؤية نقدية كافية ورفيعة من خلال دراسة تجليات فنية في الشكل أو المضمون في عملين مختلفين وربما في أزمنة مختلفة، ومن دون وجود علاقات مباشرة يمكن إثباتها. ويشير أحد الدارسين إلى هذا الجانب المهم من الدراسة المقارنة حيث يكتب: "يمكن أن يُعدّ كتاب لونجين" في الجلال" أول وثيقة أدبية وأخطرها تؤرخ للتقابل بين الفكر النقدي اليوناني والنظرية الشعرية العربية قبل ما يقرب ألف وسبعمائة عام، عندما التقى لونجين ذو الأصول العربية والثقافة الإغريقية الواسعة والذي بلغ حدًا من العلم والمعرفة حتى أن معاصريه أطلقوا عليه لقب "المتحف المتنقل" في بلاط زنوبيا – ملكة تدمر – بحضارات وآداب متنوعة ومدهشة، كالعربية والفارسية واليونانية والبيزنطية، وديانات موحدة كاليهودية والمسيحية وأخرى وثنية وزرادشتية".[5]

---

[1] لمزيد من التفاصيل عن محاكمة أورليان للونجين وإعدامه في حمص حسب الوثائق المكتوبة باللاتينية عن أعمال محكمة حمص بعد دخول أوليان مدينة تدمر، انظر، د. عبد العزيز علون، أعلام النقد الفني في التاريخ (دمشق: وزارة الثقافة، 2011)،، ص: 11-15.

[2] انظر، د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 10.

[3] من أجل التفاصيل، انظر، الفصل الثاني من كتاب د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 63-80.

[4] انظر، جوزيف ت. شو "التداين والدراسات الأدبية المقارنة" في كتاب، الأدب المقارن: المنهج والمنظور، تحرير نيوتن ب. ستالكنخت وهورست فرنز، ترجمة د. فؤاد عبد المطلب (دمشق: وزارة الثقافة، 2011)، ص: 83-84.

[5] كاسيوس لونجين، في الجلال، ترجمة وتقديم وتعليق د. عدنان خالد عبد الله، ص: 7.

ويمكن هنا إبداء ملاحظتين أساسيتين هما: إن "في السموّ" يطرح ميزات الخطابة أو الكتابة أو الشعر العظيم استنادًا إلى الحكم على جزئية صغيرة، وقد تكون بيتًا شعريًا واحدًا فحسب. أما الملاحظة الثانية فهي أن لونجين يعدّ النشوة أو المتعة والبهجة المرتبطة بسماع البيت الواحد الأساس النقدي لتقويم العمل الأدبيّ، خلافًا لبقية النقاد اليونانيين والرومان الذين يتعاملون مع انفعالات أخرى في محاكمتهم للأدب، الأمر الذي يجعل لونجين بوصفه ناقدًا ضليعًا بالثقافة اليونانية قريبًا من روح فنِّ الشعر العربي في احتفائها بالانفعال المرتبط بالبيت المفرد.

والحق، أن دراسة شخصية لونجين وعمله من منظور شرقي عربي – تدمُريّ أو حمصي– يقتضي البحث في نوعين من القضايا والمسائل: النوع الأول خارجيٌّ يدرس الأرضية التاريخية للموضوع، ويُنعم النظر في السياق الحضاري لنهوض مملكة تدمر وبدايات نهضتها على يد العائلة الحاكمة التي بدأت بحيران وانتهت بأذينة وزوجه زنوبيا. ويُعنى بدراسة لونجين وبداياته وحياته وكتاباته والروايات المتضاربة حول تأليفه كتاب "في السمو"، وإذا كان قد عاش في القرن الأول الميلادي، أم أنه الفيلسوف والناقد المعروف باسم لونجين، واحتمالات وجوده في بلاد زنوبيا، وإسهاماته الفكرية وعمله مستشارًا ووزيرًا مدة لا تقل عن عقد من الزمن، واحتمال وجود شعر عربي في بلاط زنوبيا، واحتمال تعرضه لهذا الشعر وسماعه له وهو يُنشد من الشعراء والرواة، وإلقاء الضوء على الروايات المتعارضة والمتناقضة عن أخبار زنوبيا عن المؤرخين الغربيين وأخبار الزباء عند بعض المؤرخين العرب وموتهما ونهاية مملكتهما.[1] والنوع الثاني من القضايا داخليٌّ يتعلق بنقد كتاب "في السمو" وتحليل محتواه ودراسة مكانته في مسيرة النقد الأوروبي وعلاقة المؤلف بالفكر النقدي السائد، الذي ينبثق من الأفلاطونية المحدثة التي يُنسب إليها لونجين والتي أسهم فيها فلاسفةٌ عربٌ، والتي ساعدت زنوبيا على إنشاء فرع لها في مملكة تدمر بتأثير واضح من لونجين، النهج الذي يؤدي إلى تبيين البدايات الشرقية في فكر لونجين، أو إشارات توحي بنفاذ روح الشرق وفكره في نتاجه، وإمكانية تأليف لونجين لكتابه في تدمر وليس في روما.

ومن الواجب هنا الإشارة إلى ضرورة الاهتمام بكتاب "في السمو" من زاويتي دراسات التأثير والتناظر في الأدب المقارن ومقابلته بأعمال النقد الأدبيِّ العربيِّ عبر تاريخها الطويل وذلك بالتطرق إلى أهمِّ موضوعاته ومسائله مثل "القدماء والمحدثون" و "اللغة الشعرية" و"النقاد"، و"الشعر والدين"،

[1] يعتقد مثلاً د. عدنان خالد عبد الله أن الزباء وزنوبيا هما شخصية واحدة ويحاول التوفيق بين أخبارهما، انظر كتابه، لونجين والجرجاني، ص: 30 – 40. ويعكس مثل هذا الاعتقاد نقص معلومات تاريخية متوارث لدى بعض مؤرخينا ومثقفينا؛ بحيث تؤكد بعض الشواهد الأثرية والأدبية وجود ملكتين عربيتين من أسرتين عربيتين أصيلتين مختلفتين الأولى "زينب" والثانية "نابلة أو نايلة" من دون همزة. وقد أشار إلى هذا الخلط التاريخي أكثر من باحث انظر، على سبيل المثال، سعد زغلول الكواكبي، "زنوبيا والزباء"، المعرفة، دمشق – وزارة الثقافة، العدد 520، كانون الثاني 2007، ص: 228 – 252.

و"الأدب والفلسفة" و"الغلوُّ". ومن شأن هذه المقابلة تبيان أوجه الشبه والاختلاف بين قضايا كتاب لونجين والقضايا المطروحة في كتب النقاد العرب القدماء[1] من طرفٍ، وتأصيل دراسة جهود لونجين في سياق الشعر العربي من طرفٍ آخر. وسيحقق ذلك في النهاية نتيجتين مفيدتين، الأولى تنظيريةٌ تُغني الدراسة النقدية المقارنة العربية في حال كون التشابهات فنية وتصادفية محضة، والثانية نقديةٌ عمليةٌ ترى إمكانية تأثر لونجين بالشعر العربي الذي كان يُلقى في بلاط زنوبيا إذا ما ثبت ذلك، وقام بتطبيق مبدأين من مبادئه على الأدبين اليوناني والروماني، وهما شعرية البيت الواحد والنشوة أو المتعة النابعة منه، وثانيهما الاحتفاء بالانفعال الذي يقوم على الحبور أو البهجة عوضًا عن الانفعال الأرسطيِّ الذي يستند أساسًا إلى استجابة المتلقي المتوقفة على استثارة عاطفتي الشفقة والخوف من خلال ارتباطهما بمبدأ التطهير. وفي الواقع، إن النظرية النقدية العربية، قد قامت على هذين المبدأين من حيث ارتباطهما بفن الشعر العربي، قليلًا أو كثيرًا، حسب طبيعة اللحظة الأدبية والمؤثرات الفنية والاجتماعية، كما يحدث عادة لمعظم المفاهيم النقدية في آداب العالم. وربما من خلال الإشارة لهذه الظاهرة نمهد الطريق على نحوٍ ما أمام باحثينا للولوج في أعمال هذه القضية والمسائل المتصلة بها لتبين أوجه التشابه والاختلاف مع آداب العالم.

ومع أن ناقدًا مثل تشارلز بريسلر يورد في أثناء تقديمه لونجين القرن الميلادي الأول عصرًا لحياته موحيًا بأصله الإغريقي، فإنه بعدئذ لا يتردد في إبداء شكوكه بخصوص التاريخ والبلد الذي ولد فيه لونجين حين يذكر أن المؤلف يطعّم كتاباته الإغريقية واللاتينية باقتباسات من كتاب العهد القديم. ويجعل مثل هذا التطعيم من لونجين أول ناقد مقارن بارز يورد اقتراضات من تقليد أدبي مختلف عن تقليده الأساسي.[2] ومن ثَمَّ يذكر أن لونجين وأفلوطين قد درسا على يد أستاذهما أمونيوس السقاص Ammonius Saccas في الإسكندرية، ويعطي العام 270م تاريخًا لوفاة أفلوطين، أي قبل ثلاثة أعوام من قتل لونجين في العام 273م. ويدل بوضوح أنهما كان متقاربين في السن وأنهما عاشا خلال القرن الثالث الميلادي.[3] ولابد من الإشارة إلى مشكلةٍ أكثر خطورةً هي وجود باحثين ونقاد غربيين لا يتمتعون بالموضوعية الكافية عندما يحاولون الإقلال من أهمية لونجين ونتاجه،[4] أو نفي أن يكون هو المؤلف الحقيقي لكتاب "في السمو" عبر أبحاث يجب الوقوف عندها. وهذا ما قام به

---

[1] يُجري د. عدنان خالد عبد الله دراسة مقارنة مفيدة ناجحة بين كتابي لونجين "في السمو" وكتاب الجرجاني "الوساطة بين المتنبي وخصومه" في كتابه الآنف الذكر.

[2] انظر، تشارلز بريسلر، النقد الأدبي: مقدمة في النظرية والتطبيق، المعطيات السابقة، ص، 26-27.

[3] المرجع السابق، ص 27.

[4] مثلاً: يكتب ريتشارد داتون: "لم يكن لونجينوس ناقداً مؤثراً بمستوى النقاد الثلاثة الآخرين الذين درسناهم من المرحلة الكلاسيكية". (يقصد أفلاطون وارسطو وهوراس). انظركتابه، مقدمة لدراسة النقد الأدبي الإنجليزي، ترجمه وقدم له د. فؤاد عبد المطلب، المعطيات السابقة، ص: 42.

باحثان أمريكيان في السنوات الأخيرة عبر دراسة تاريخية وجغرافية وفلسفية لمحتوى الكتاب بهدف محدد من البداية، وهو أن المؤلف لا يمكن أن يكون لونجين.[1] وهذه المحاولات مفهومة حيث إنها تسعى عمدًا لإثبات أن مصدر أي إبداع فني أو فلسفي إنما هو أوروبا، ولا علاقة للشرق بأي إسهام حضاري أوروبي حقيقي.

ولا يمكننا أن ننكر وجود باحثين غربيين يتصفون بالموضوعية والعقلانية فيما يخص هذا الموضوع، مثل الباحث الكندي غروب الذي يعبر عن آرائه في مقدمة ترجمته للكتاب. فهو لا يرى مسوغًا لرفض الاسم التاريخي بوصف لونجين مؤلفًا للكتاب، ويرد بهدوء وروح علمية على الحجج المقدمة خلاف ذلك، وينهي مناقشته بالقول: إنَّ كل ما نعرفه عن لونجين يثبت تأليفه للكتاب من حيث الشهرة أو الإنتاج الأدبي، أو سعة الاطلاع أو الثقافة العامة أو التربية البلاغية، فما لم تظهر نسخة أخرى تثبت العكس يظل المؤلف هو لونجين.[2] كما يكتب الباحث والناقد الإنكليزي المعروف ديفيد ديتشس في مقدمة أحد أهم كتبه النقدية: "أغفلنا في هذا الكتاب العديد من مشاهير النقاد: هوراس وكونتليان وفيدا وبوالو مثلًا، مع أن لكل منهم مكانته المرموقة في تاريخ النقد. ولكن أحدًا منهم لا يمثل منهجًا خاصًا في تناول الأثر الأدبي... وقد حاولت أن أتخذ الأمثلة على المناهج والأساليب النقدية من الكتّاب... وكان لابد لي أن أضم أفلاطون وأرسطوطاليس ولونجينيوس نظرًا للأهمية الخاصة لإسهام كل منهم".[3]

ثمة إجماعٌ بين باحثين ونقاد غربيين أن لونجين (213 – 273م) هو وزير زنوبيا ملكة تدمر الذي ولد في حمص، ودرس في الإسكندرية، وكان صديقًا حميمًا للفيلسوف "فورفوريوس" وأستاذه[4] أيضًا،

---

[1] انظر، د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 79.

[2] انظر: المرجع السابق، ص، 79 – 80. وانظر، جي. م. أ. غروب، "ملاحظات حول السمو"، مجلة فقه اللغة الأمريكية، العدد 78 (1957)، ص، 355 – 740. (بالإنجليزية).

[3] ديفيد ديتشس، مناهج النقد الأدبي: بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم ومراجعة د. إحسان عباس، ص، 10.

[4] انظر: على سبيل المثال، أرسطو وهوراس ولونجينوس، النقد الأدبي الكلاسيكي (لندن: كتب بنغوين، 1981) ص، 1. (بالإنجليزية). يذكر أيضاً المهندس جورج فارس رباحية نقلاً عن الرحالة الإنجليزي بيركهارت بورتر الذي زار سورية عام 1850 وطاب له العيش في دمشق، وسكن فيها مدة خمس سنوات، عاد بعدها إلى لندن وألف كتاباً عن رحلته في الشرق بعنوان "خمس سنوات في دمشق" وطبعه في مجلدين عام 1855. ويورد مقتطفات من الجزء الثاني الذي يصف فيه مشاهداته عن مدينة حمص في مقال (جولة في مدينة حمص) نقتبس منه: "تكلم بورتر بالتفصيل عن عصر الأباطرة الحمصيّين الأربعة الذين حكموا روماً خلال الفترة بين (193-235م) وعن عصر مملكة تدمر وملكتها زنوبيا وكيف تَعرَّف عليها الفيلسوف الحمصي الكبير (لونجين) واكتسب صداقتها فعيّنته أستاذاً لها في اللغة اليونانية وآدابها ومستشارها الخاص...". انظر،(قالوا عن حمص، تاريخ المشاهدة 2011/8/22، ص1: https://www.zamanalwsl.net/news/21102.html).

وهو أحد تلامذة أفلوطين، مؤسس الأفلاطونية المحدثة،[1] وكان معلمًا للبلاغة في أثينا، التي لم يقض فيها مدةً طويلةً حيث انتقل إلى تدمر للعمل في البلاط مربيًا ومعلمًا ومستشارًا. غير أنه يواجه قدره حين قدَّم حياته قربانًا لتدمر بعد أن اتهم بأنه حرض ملكتها على الثورة ضد روما، وهكذا أُعدم بناءً على أوامر صريحةٍ من الإمبراطور أورليان عام 273م. وقد اشتهر في عصره بأنه من أكثر النقاد علمًا وحصافة. ومن الغريب أن عددًا من النقاد الذين كتبوا عن هذا الموضوع يغفلون قصدًا حقيقة أن لونجين قد ولد حسب إحدى الروايات في تدمر، وفي رواية أخرى في حمص.[2] وفي الحقيقة لا يوجد أي تعارض بين هاتين الروايتين، فتدمر كانت مدينة كبيرة تمثل العاصمة آنذاك حسب مفهومنا، في حين أن حمص تمثل إحدى مدنها المشهورة. أما الرواية الأخرى عن ميلاده فهي أنه ربما ولد في روما، وأن عمه فرونتو Phronto كان خطيبًا مفوهًا، وهناك علّم لونجين البلاغة ودربه عليها، وان لونجين التحق في السنوات الأخيرة من حياته ببلاط زنوبيا ليسهم في بناء حياتها الثقافية والسياسية.[3]

وعلى أية حال، يمكننا هنا أن نجري مقاربةً لكتاب "في السمو" من الناحيتين الفنية والفكرية. لقد حاول الفيلسوف أفلوطين (205 – 270م) أن يطور آراء الفيلسوف أفلاطون ومفاهيمه. وقد سعى عبر فلسفته إلى البحث عن الوحدة من خلال فهم الظواهر المتنوعة، ومن الناحية الصوفية يمكن النظر إلى فلسفته على أنها محاولة صعود النفس من خلال ظواهر العالم المحسوس إلى المطلق. ويصبح العالم نوعًا من الفيض التدريجي للذات الإلهية التي تنبع من الواحد أو المطلق دون أن ينقص منها شيئ.[4]

وقد حاول بعض الفلاسفة من تلاميذ أفلوطين أن يطوروا أفكار أفلاطون بحيث تلاقي أفكار أرسطو. وبحلول القرن الخامس تكونت مدرستان للأفلاطونية المحدثة، إحداهما في الإسكندرية وقد تنصرت فيما بعد، أما الثانية فكان مركزها في أثينا وقد أغلقت في العام 529م، لأنها كانت مركزًا وثنيًا. ولا بد من الإشارة إلى أن الأفلاطونية المحدثة كانت تنافس المسيحية وتعرض نفسها ديانةً بديلةً منها.

---

[1] توفي أفلوطين عام 270م، وألف أربعاً وخمسين مقالة، قام بجمعها وتحريرها وتسميتها "التاسوعات" تلميذه وصديقه فورفوريوس الصوري، وذلك في ستة أجزاء يحتوي كل جزء منها تسع مقالات. لمزيد من المعلومات حول أفلوطين انظر، تشارلز بريسلر، النقد الأدبي: مقدمة في النظرية والتطبيق، ص، 27-28.

[2] انظر: د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 66؛ وانظر، د. عدنان البني وخالد الأسعد، تدمر أثرياً وتاريخياً وسياحياً، ط4، 2003، ص: 31. وانظر، د. عدنان البني، تدمر والتدمريون (دمشق: وزارة الثقافة، 1978) ص: 78.

[3] المرجع السابق، ص: 67.

[4] يمكن العودة إلى عدد من المصادر حول الفلسفة الأفلاطونية المحدثة مثل كتاب: عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني (القاهرة: دار النهضة المصرية، 1975)، وأميرة حلمي مطر، دراسات في الفلسفة اليونانية (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1980)؛ وغسان خالد، أفلوطين رائد الوحدانية (بيروت: منشورات عويدات، 1983)؛ ود. مصطفى النشار، "أفلوطين فيلسوفاً مصرياً"، في كتابه، نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة، الكتاب الأول، القاهرة: وكالة زوم برس.

ومن أشهر أتباع أفلوطين الفيلسوف فورفريوس (232 – 304م) وأيامبلقوس (207؟ - 330م؟) وكلاهما من أصل عربي. أما فورفريوس فهو تلميذ لونجين، درس البلاغة على يديه في أثينا ثم سافر إلى روما، وأصبح تلميذًا لأفلوطين. فإذا كان اثنان من دعاة الأفلاطونية المحدثة من أصول عربية وأن فورفريوس (قبل أن يكتسب الاسم اليوناني) كان مقربًا إلى كلٍّ من لونجين وأفلوطين، فلا بد أن تجد الأفلاطونية المحدثة طريقها على نحوٍ ما إلى تفكير لونجين.[1]

تنحصر أهمُّ أفكار أفلاطون عن الشعر والشعراء في محاورات "أيون" وكتاب "الجمهورية". ومن المعروف أن أفلاطون يعترض على الشعر لأنه لا ينطلق من معرفة بفن الشعر لأنه مسَّ من الجنون، وعلى الرغم من أن هذا المس مصدره الآلهة، إلا أن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا، فقيمة الشعر تنبع من أن الشاعر يتكلم فيه عن أشياء لا يفقه عنها شيئًا. وحينما يفكر أفلاطون في مدينته الفاضلة، فإنه لا يرى دورًا للشعر والشعراء فيها، حيث لا علاقة للمواطنة الصالحة بأي منهما.[2]

وتصل الأفلاطونية المحدثة إلى الاهتمام بمظهرين من مظاهر الشعر: الأول أن الإلهام الذي ينتقده أفلاطون ويَعدُّه خروجًا على العقل وتسفيهًا له يرتبط بالروح وتجلياتها، والمظهر الثاني أن الشعر الحقيقي ليس ذلك النظم الخنوع الذي يحتفي بالوضع الراهن ويرسِّخ وجوده، بل هو ذلك النَفَس "الإلهي" الذي ينقل الروح إلى آفاق بعيدة عن الواقع بسبب النشوة المرتبطة بالسمو. ويبدو أن هاتين الناحيتين تجذبان لونجين باتجاه الشعر وتثيران فضوله؛ هذا مع العلم أن كتاب "في السمو" موجه أصلًا إلى الخطيب، وليس إلى الناقد، أي إنه مُعدّ للاستماع، وهدفه تعليم الخطيب فن الحديث الرفيع؛ كي يتلذذ السامع بالجمل والعبارات والأفكار، وينتقل إلى آفاق رحبةٍ من الخيال، والهدف ليس الإقناع بل النشوة المجردة. وحسب لونجين إذا أراد المرء أن يقوّم عملًا أدبيًا عليه أن يكون قارئًا متعمقًا في الأدب ونتيجة لذلك يكون تقويمه جيدًا وقادرًا على تمييز ذلك الشيء العظيم الذي يسميه "السامي". ويؤكد أيضًا أن القراء جميعهم قادرين في دواخلهم على تمييز ذلك العنصر "السامي" لأن الطبيعة غرست فيهم حبًا كبيرًا لكل شيء يتسم بالعلو والقدسية. وحين تستجيب عقولنا وعواطفنا وإراداتنا على نحو متناغم لعمل فني ما، علينا أن نعرف بأن العنصر "السامي" قد أثر فينا.

ومن الصعب أن يجد المرء تطابقًا أو تشابهًا بين مفردات أفلوطين الذي يهيم بقضايا ما وراء الطبيعة، ولونجين الذي يتعامل مع البلاغة. فالمعالجة عند الاثنين مختلفةٌ، واللغة تنحو منحىً

[1] انظر: د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 123؛ وعرفان شهيد، روما والعرب: مقدمة لدراسة بيزنطة والعرب (واشنطن: دامبارتن أوكس، 1984) ص، 154 (بالإنجليزية)؛ وريتشارد ستونمان، تدمر وإمراطوريتها (آن آربر: منشورات جامعة ميتشغن، 1993)، ص: 132 (بالإنجليزية).

[2] لمزيد من التفاصيل، انظر، ريشارد داتون، مدخل لدراسة النقد الأدبي الإنكليزي، ترجمه وقدم له د. فؤاد عبد المطلب، ص: 26-30.

مغايرًا بسبب اختلاف الموضوع والوسيلة والهدف، بيد أنَّ التشابه بين الأفكار موجودٌ. وكما يقول أفلوطين في مقالته "عن الجمال": إن "الجسم يكتسب الجمال عندما يشترك مع العقل الذي يأتي بما هو إلهي"؛[1] يؤكد لونجين أن أعظم الكتّاب هو من يسمو فوق البشر باقترابه من الفكر الإلهي.

ويمثل الإلهام عند أفلاطون القوة اللامسؤولة وغير المنضبطة للروح، وذلك بسبب غياب هيمنة العقل عند الشاعر في أثناء الإلهام، لأن الآلهة "تتلبس" الشاعر في لحظات الإلهام تلك، وهذا التلبس أو الاستحواذ ينتقل بدوره إلى راوية الشعر ومنه إلى الجمهور، فالكل يفقد عقله وينتقل إلى عالم النشوة الروحية والمتعة بعيدًا عن العالم اليومي المألوف. وتغدو هذه الفكرة عند لونجين محك الأدب الحقيقي والأصيل، ومعيار الجودة، قدرة العمل الأدبي على استثارة تلك النشوة الروحية عند السامع أو القارئ وليس الاقتناع، فالنشوة انفعالية والاقتناع عقلي بحت. يؤكد لونجين أن السمو هو الذي يحدد حدود العظمة الحقيقية حين يناقش: يكمن السمو في تفوق خاص وتميُّز في التعبير، وهذا وحده الذي منح الشعراء العظام والمؤرخين تفوقهم وأكسبهم شهرتهم الخالدة. وفيما يتعلق بتأثير اللغة النابضة بالحيوية، فإنه لا ينصب على إقناع السامعين بل إمتاعهم. ومن دون أي استثناء، فإن ما يبعث فينا النشوةَ شيءٌ هو أكثر تأثيرًا من مجرد إقناعنا أو إمتاعنا. إن المدى الذي يمكن إقناعنا فيه بشيء ما يكون عادة تحت سيطرتنا، ولكن تلك المقطوعات السامية لها قوة لا تقاوم وسيطرة كبيرة، وتكون لها الغلبة عند كل سامع... وإذا أحسن توقيت المقطوعة السامية فإنها تجرف أمامها كل شيء كالصاعقة، وتكشف عن القوة الكاملة للمتكلم في ومضة واحدة.[2]

وعلى خلاف الناقد هوراس الذي يسعى إلى الجدارة والتساوق في المقام الأول، وينتقد الفقرات المنمقة بعنفٍ، يؤكد لونجين "وميض السمو" الدقيق التوقيت الذي ينيرُ كلَّ شيء أمامه مثل وميض البرق، فيكشف قدرة المتحدث التامة بصورة خاطفة. ويؤكد لونجين أن السمو لا يحدث مصادفة، إذ يمكن أن تكون الموهبة العبقرية متأصلة، لكن لا بدّ من صوغها وتدريبها، مثلًا عن طريق محاكاة أدباء الماضي السامين. ويقترب في هذه النقطة، بصورة مذهلة، من هوراس في فكرة أن الفن يستطيع أن يعزِّزَ القدرات الطبيعية دائمًا. ولا يمكننا أن نتوقع أنَّ أيَّ مؤلف قادر أن يبلغ السمو بصورة متساوقة – "حتى هوميروس ارتكب هفوات"، كما تبين العصور اللاحقة – لكن تطبيق المهارات الضرورية يعين المؤلف. وينفصل هنا لونجين بآرائه عن هوراس نهائيًا، حينما يؤكد أن لمسات السمو العارضة أفضل من الجدارة المقيدة المجردة. ويجيب لونجين عن تحديد السمو:

---

[1] اقتبسه د. عدنان خالد عبد الله في كتابه، لونجين والجرجاني، ص: 114.

[2] أرسطو وهوراس لونجينوس، النقد الأدبي الكلاسيكي، المعطيات السابقة، ص: 100. (بالإنجليزية).

تعزز بعض الخصائص الفطرية للسمو الحقيقي الرفعة في نفوسنا: وعندما نسمو بإحساسنا بامتلاك الفخر يغمرنا الفرح، وكأننا نحن أنجزنا ما سمعناه بأنفسنا. وإذا سمع امرؤٌ حساسٌ واسع الاطلاع مقطوعةً أدبيةً بضع مرات، ووجد أنها لا تؤثر في حاسة السمو لديه أو تغذي الفكرة في ذهنه أكثر مما توحي به الكلمات؛ لا بل إنه كلما قرأها بإمعان أكبر، وجدها أقل تأثيرًا، فلا يمكن أن تكون حقًا مثالًا للسمو الحقيقي... وبالإمكان عمومًا أن نعدَّ ما هو جميل وسام حقًا هو ما يمتع الناس كلهم في الأزمنة كلها.[1]

ويؤكد لونجين وجود خمسة مصادر للسموّ: عظمة الفكر ورفعته وهي الأهم، أي القدرة على استيعاب المفاهيم العظيمة، وهذا ممكن فقط إذا تمتع المؤلف بنبل الروح حقًا. ويقتبس في هذا السياق من هوميروس، وبصورة لافتة جدًا من المقطع الاستهلالي في سفر التكوين من الكتاب المقدس[2]. ويستشهد أيضًا بقصيدة للشاعرة الغنائية الإغريقية سافو (580 ق.م تقريباً)[3]؛ أما المصدر الثاني فهو العاطفة المتقدة والملهَمة، وقد وعد أن يُفرد بحثًا خاصًا بها، لذلك لم يُسهب في الكتابة عنها – ولم تكتب الحياة لهذا الجزء من البحث فعليًا؛ ثالثًا، يمكن إحراز السمو من خلال استخدام الصور البلاغية المؤثرة واللامباشرة؛ رابعًا، يمكن إحراز السمو بوساطة "اللغة المرموقة" التي تشتمل على الاستعارات والزخارف اللفظية الأخرى؛ وأخيرًا، يورد لونجين رخامة الأسلوب ورفعته مصدراً للسموّ، ويمتد هذا من تراصف الكلمات وترتيبها المميز إلى بنية العمل الواسعة، حيث يصرّ على المفهوم المؤسس بدقة للوحدة العضوية، مع أنه يحتل مرتبة أدنى كثيرًا في سلم أولوياته مما هو عند أرسطو.[4]

على أية حال، يتركز رأي لونجين، في أن ما يهم في الأدب هو لحظاته الملهَمة والملهِمة، ويمكن أن يجد الكثيرون في مقاطع كتابه التي لا تُنسى حقًا، جاذبية (ليس أقل عندما يرتبط رأيه مع الرأي القائل بأن السموَّ يروق للبشر لأنهم يمتلكون عقولًا متطلعة طبيعيًا). وتكمن المشكلة بالطبع في كيفية بلوغ إجماع حول السمو وكينونته. من أجل ذلك كله، يحاول لونجين الدفاع عن تأكيداته بإشارات ذكية إلى أمثلة عديدة، لكنه لم يتوصل إلى صيغة مثبتة موضوعيًا ومقبولة عمومًا، كما لم يتوصل أحدٌ غيره لذلك منذ زمانه حتى الآن. ويمكن أن نقول هنا: إن الحماسة الصرفة لكتاب "في السمو"

---

[1] المرجع السابق، ص: 107. (بالإنجليزية)

[2] (في الفصل التاسع من كتاب لونجين).

[3] (في الفصل العاشر من كتاب لونجين). ولمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة، انظر، د. عبد العزيز علون، أعلام النقد الفني في التاريخ، المعطيات السابقة، ص: 18-24.

[4] انظر: المرجع السابق، ص، 108؛ وانظر، أيضاً، ريتشارد داتون، مقدمة لدراسة النقد الأدبي الإنجليزي، ترجمه وقدم له د. فؤاد عبد المطلب، ص: 41-42.

مقترنة باستجاباتها الحساسة لذلك التنوع الواسع من النصوص الأدبية، تؤثر في كل ناحية من تاريخ النقد، بالقدر الذي تؤثر في مقدمته النظرية.

وخلاصة القول، إن غاية الأدب عند لونجين، أن يكون محركًا مثيرًا رافعًا ناقلًا، وواجب الناقد أن يبين كيف يمكن أن يتحقق ذلك، وذلك بإظهار العناصر التي يمكن أن تؤدي إلى هذه الغاية على أفضل وجه. إن أفلاطون، كما اتضح من "الأيون" و"الجمهورية"، لا يمكن أن يجد أية قوة أو غَنَاء في حجج لونجين، فهي في نظره مجانبة للصواب. أما أرسطو فقد يروقه بعض الشيء تحليل لونجين لبعض المقطوعات، ليُبيّن كيف تخلق بعض الأساليب تأثيرات معينة. ولعله عدها قضايا بلاغية من نوع ما، ولكنه قد يحار في المقدمات المنطقية التي طرحها لونجين، ويرى أن أسئلته وأجوبته لم تكن صائبة. وخلافًا لما كتبه أفلاطون وأرسطو وهوراس الذين ركزوا على التوالي على جوهر العمل الأدبي والأجزاء المكونة له وعلى التذوق الأدبي، فإن لونجين يركز على عناصر منفردة بالنص. وتنماز أفكاره النقدية بأنها ترخي ظلالها على مدرسة النقد الجديد، ونقد تلقي القارئ، ومدارس نقدية برزت في القرن العشرين، وذلك كله من خلال التأكيد على كون المؤلف يتمتع بروح وفكر عظيمين، وعلى كون العمل الفني مكتوبًا بلغة فخمة وراقية، وعلى كون القارئ أو المستمع يتمتع بثقافة عالية المستوى، وأن استجابة القارئ أو النظارة تحدد بدرجة كبيرة قيمة أو شأن أي عمل فني.

ولعل الموقف الكلاسيكي منه يعود إلى حقيقة أنَّ لونجين "أثار مسائل تختلف كلَّ الاختلاف عن تلك التي أثارها كل من أفلاطون وأرسطوطاليس".[1] وقد توصل أحد الدارسين إلى طبيعة هذا الاختلاف الذي يكمن في التفكير النقدي الرومانتيكي المبكر حين أطلق عليه صفة "أول رومانتيكي في التاريخ".[2] فقد كان أول من أكد العبقرية والبيت الشعري الذي يلهب حماسة المستمع وينقله إلى عوالم بعيدة، وهذه الحماسة أو النشوة هي عينها التي لا تأخذ بالعقل، وتهمل دور القواعد والأصول، لأنه انفعال خالص لا يشوبه أي عائق فكري. كما أنه ليس صحيحًا أن الرومانتيكية أهملت شخصية لونجين وأفكاره النقدية كما يدعي أحد الباحثين: "ومن سخرية الأقدار أن الثورة الرومانتيكية في الأدب التي قامت ضد مبادئ الكلاسيكية المحدثة في دعواها لتغليب العقل على الإبداع واهتمامها بالصنعة على حساب الطبع، لم تجد في لونجين مصدر إلهام".[3] ومن المعروف أن لونجين قد تمتع بشعبية يمكن إدراكها بوضوح في مستهل عصر الرومانتيكية. وقد كان وليم وردزورث (1770-1850) على سبيل المثال، مهتمًا به إلى حدٍّ بعيد.[4] إن دراسة أفكار الشعراء والنقاد الرومانتيكيين الأوائل مع

---

[1] ديفيد ديتشس، مناهج النقد الأدبي: بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم ومراجعة د. إحسان عباس، ص: 82.

[2] ر. أ. سكوت – جيمز، "أول ناقد رومانتيكي" في كتاب، صناعة الأدب (لندن: 1936)، ص: 80-94. (بالإنجليزية).

[3] د. عدنان خالد عبد الله، لونجين والجرجاني، ص: 117.

[4] انظر: ريتشارد داتون، مقدمة لدراسة النقد الأدبي الإنكليزي، ترجمه وقدم له د. فؤاد عبد المطلب، ص: 42.

ما قدمه لونجين من فكر نقدي شكل "أول نظريةٍ ذاتِ شأنٍ في الأدب[1] تحتاج إلى دراسةٍ مستفيضةٍ ومستقلة. لقد تعرض لونجين لعسف نقدي اختزل من عبقريته عبر نظرة أحادية الفهم شكلت جزءاً من عقلية العصر ومزاجه الذي عاشوا فيه دون أن يتمكنوا من الالتفات إلى نواحي التفرد والتميز لديه التي سبقهم إليها بقرون عدة.

[1] ديفيد ديتشس، منهاج النقد الأدبي: بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم ومراجعة د. إحسان عباس، ص: 82.